اتحاد شمال أفريقيا

للأستاذ عبد المجيد بن جلون

مضى عصر الموت والانحلال فى شمال أفريقيا وبدأ عصر جديد يلوح فى الأفق ، وبذلك لاتضيع السنوات الطويلة التى قضاها فى الكفاح سدى . وقد تطورت قضايا تونس والجزائر بحيث أصبح من المستحيل تجاهلها . فلا بواق الإستعمار أن تزعم ماتشاء ، وللسلطات المحلية أن تتصرف كما تريد ، فإن الفترة الحالية لن تدوم طويلا . إن حالة الضغط والإضطهاد والفوضى التى تشمل اليوم هذه الأقطار العربية الشقيقة ، إنما هى مظاهر انهيار يشق طريقه إلى القبر بخطى حثيثة ، أما هذه النهضة الوطنية المكافحة الصابرة فهى طليعة عصر جديد . ذلك أن قضايا شمال أفريقيا تخرج من حدودها الضيقة المحدودة ، إلى حدود أوسع لم يكن لها عهد بها من قبل ، فصوتها يرتفع اليوم فى العواصم العربية كلها كما يرتفع فى باريس ولندن ونيويورك ، وليس هناك من يستطيع أن يقف فى وجه شعب صمم على أن يعيش مهما كان الثمن الذى يدفعه فى سبيل أن يعيش .

وللاستعمار القاسى الشديد مساوئ لاتحصى ، ولكن له حسنة فى هذه البلاد ، فقد عرف الناس بواسطته أن الحديد لا يغلبه إلا الحديد ، ولذلك لم يوجد فيها من يحاول اصطياد الفرص لأنه لاتوجد فرص ، وإنما عبأوا جهودهم للمقاومة الطويلة الحافلة بالصبر والكدح والشقاء ، فأكسبهم ذلك قوة قل أن يتسلح بها شعب دون أن تصل به إلى النجاح ، وبذلك برهنوا على أن بلادهم — بالرغم مما قاسته — غير قابلة للموت .

أضف إلى ذلك أن الوضعية فى شمال أفريقيا غير طبيعية ، فالناس فيها يحكمون بأساليب بعيدة كل البعد عن أن ترضى مايصبون إليه بعد أن تعرفوا إلى الحياة الحديثة ، ونزعوا إلى الحرية والإستقلال . وإذن فليس هناك بد من أن تتغير الحالة الحاضرة سواء رضى السادة المستعمرون أم كرهوا ؛ ذلك أنهم يقفون فى وجه التاريخ ، ولن يكون من اليسير الوقوف فى وجه التاريخ طويلا ...

ولست أكتب هذه الكلمة لأتحدث عن الإستعمار الفرنسى ومساوئه الشهيرة ، وإنما أريد أن أتحدث عن نوع النظام الذى يجب أن تخضع له هذه البلاد الشاسعة بعد أن يزحزح التاريخ هؤلاء السادة الواقفين فى وجهه . ماهى قواعد السياسة فى شمال أفريقيا الحرة ؟ هل يظل التقسيم الحالى قائما أم يقوم مقامه اتحاد ؟

يظن كثير من الناس أن تقسيم شمال أفريقيا الحالى يرجع إلى الإستعمار الفرنسى ، وهذا ليس بصحيح . فقد عرفت شمال أفريقيا على هذا النظام منذ زمن بعيد ، حتى قبل الإسلام خضعت أجزاؤه المختلفة إلى مقادير متباينة ، بحيث لم يستطع أحد أن يوحده فى ظل الحرية أو الإستعمار ، إلى أن جاء الإسلام ، ولم يكد ولاة القيروان يوحدون تلك الأراضى حتى تصدعت هذه الوحدة من جديد . ويكفى أن نقول إن شمال أفريقيا فى تاريخه الاسلامى الطويل لم يتوحد إلا مرتين ، أولاهما فى عصر الفاطميين إلى أن رحلوا إلى مصر ، وثانيتهما فى عصر الموحدين ملوك مراكش إلى أن انفصل عنهم بنو زيان فى الجزائر ، وبنو حفص فى تونس ، وهكذا تصدعت وحدة شمال أفريقيا لآخر مرة فى القرن السابع الهجرى بعد أن لم يكتب لها النجاح فى المحاولتين اللتين أسلفنا الاشارة اليهما . وكان هذا على أساس قيام ثلاث دول هى مراكش والجزائر وتونس ، وقد ظل الأمر على ذلك منذ هذا الحين .

ذلك هو التاريخ ، وهو دون شك عامل حيوى لايجمل إغفاله . بيد أن ظروف الحياة فى العصر الحديث قد تغيرت وبات نظام العالم يدعو إلى قيام كتل دولية كبيرة ، تقوم على أساس التعاون وتبادل المنفعة . فإذا أعدنا النظر فى اتحاد أو وحدة شمال أفريقيا على ضوء هذا استطعنا أن نلاحظ أشياء جديدة .

هذه البلاد شديدة التشابه من الناحية الجغرافية ؛ فهى مثل الجزيرة الخصبة المحصورة بين رمال الصحراء فى الجنوب والشرق ، ومياه البحر فى الشمال والغرب . والإختلاف فى الظواهر الطبيعية بينها جميعاً يشبه اختلاف هذه الظواهر فى كل قطر على حدة . ولذلك فإن هناك تشابها كبيراً بين السكان فى الجنس والعادات والخلقة والتنوع .

ولا توجد حدود طبيعية بين هذه الأقطار ، ولذلك ظلت حدودها مطاطة وغير مستقرة خلال عصور التاريخ .

وتاريخها شديد الإرتباط فى حوادثه بالرغم من انفصالها

السياسى ، وأغلبية السكان الساحقة مسلمون وهم متشابهون فى ظروف الحياة ، ومستوى الفكر ، وتركيب العقلية ، وكل اختلاف فى طبائعهم يرجع إلى عوامل استثنائية لن تلبث أن تزول مع انهيار الأنظمة الحالية . أضف إلى ذلك خضوعها فى العصر الحديث لدولة واحدة هى فرنسا — مع استثناء الجزء الشمالى الصغير من مراكش الخاضع للنفوذ الاسبانى ولا يتعدى سكانه المليون نسمة — ومهما تتعدد الأنظمة وأسماؤها ، فقد اصطبغ الاستعمار الفرنسى فيها بصبغة واحدة ، لايختلف فى جوهره مطلقاً . قام فيها باصلاحات مادية واحدة ، وأثار فيها مشاكل واحدة أيضاً ، هى مشكلة العنصرية ونزع الأراضى وكبت الحريات العامة ومحاولة التوفيق بين التقدم الإقتصادى والاستثمار وبين الحيلولة دون تطور الأهالى واستفادتهم من التقدم الاقتصادى ، فنتجت عن ذلك حالة واحدة متشابهة .

ثم إن الموقف الفرنسى إزاء أمانى هذه البلاد القومية موقف واحد وهو موقف الحريص على الإحتفاظ بكل شىء وعدم التسامح حتى فى المسائل الصغيرة التى لا تقدم ولا تؤخر فى صميم النظام الحالى

وقد قلنا ونحن معتمدون على طبيعة الحياة وقانون التطور — إن هذه البلاد سوف تحقق أمانيها القومية مهما فعل الفرنسيون . فالسؤال الذى نريد أن نطرحه الآن هو : هل فى استطاعة هذه الأقطار أن تكون بعد تحررها من النظام الحالى دولة واحدة أو أن تؤلف اتحاداً سياسياً ؟ .

لقد رأينا أن التاريخ لايقدم الينا أمثلة مشجعة على التفكير فى قيام دولة واحدة مؤلفة من شمال أفريقيا العربى ، ولذلك فنحن نرى استحالة قيامها فى المستقبل القريب . أما مايمكن أن يقوم فهو « اتحاد شمال افريقيا العربى » وهو مشروع يجب إطالة التفكير فيه ، ومحاولة بنائه على أسس مستمدة من التاريخ

كان هذا الاتحاد متعذراً فى الماضى يوم كان التاريخ لايسمح به لأسباب كثيرة لامجال لذكرها فى هذه العجالة . أما اليوم فإن المآسى الحديثة قد صهرت هذه الأقطار ، وقربت فيما بينها ، وجعلتها تفكر فى مشاكل واحدة ، وتقاسى أرزاء واحدة ، وتكون على اتصال دائم بحكم النظام المتشابه الذى تخضع له ، وتبعيتها لدولة واحدة فى العصر الحديث .

كان سقوط الجزائر فى يد الأتراك إيذانا بسقوط تونس فى يدهم أيضاً . ثم سقطت الجزائر مرة أخرى فى يد الفرنسيين فكان سقوطها مقدمة لسقوط جارتيها معاً . وإذن فإن من أبسط الدواعى إلى قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربى » هو أمن هذه البلاد الإجماعى فى المستقبل . وليس ذلك لأنها لن تستطيع الدفاع عن نفسها منفردة ، ولكن لأن الحدود بينها ليست طبيعية ولذلك لايمكن أن يبنى الدفاع عن واحدة إلا على أساس الدفاع عنها جميعها . والحرب الأخيرة نفسها تقدم الينا أسطع مثال على هذا ، إذ كان مصير هذه الأقطار واحداً حين انتصر الألمان ، وواحداً حين انتصر الحلفاء ، وعجز المارشال رومل عن الصمود فى تونس أمام جيوش الحلفاء التى احتلت الجزائر ومراكش .

وعلى ذلك فنستطيع أن نصل إلى نتيجة منطقية سليمة هى أن شمال أفريقيا لن يستطيع أن يكون إلا مجتمعاً ؛ وسوف يكون اتحاده مصدر قوة ، ولن تتمتع واحدة من بلاده باستقلالها كاملا مادامت إحدى جارتيها محتلة بالجيوش الأجنبية . وإن السبيل الوحيد إلى ذلك هو قيام « اتحاد شمال أفريقيا العربى » .

وإلا فسوف يكون من سخرية الأقدار أن يجمع بينها الاستعمار ثم يعجز عن ذلك الاستقلال .

عبد المجيد بن جلوون

بعض المؤلفات التى ظهرت أخيراً:

ص

٥٠ الرسالة الخالدة ... بقلم عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية

٥٠ أقوالنا وأفعالنا ... تأليف محمد كرد على بك رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق

١٥ المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ... ... ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر زكرى

١٥ دفاع عن العلم ... : تعريب الدكتور عثمان أمين

٢٥ يسألونك ... ... : تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

١٠ أثر الشرق فى الغرب: ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على

تطلب من أصحاب دار أحياء الكتب العربية

عيسى البابى الحلبي وشركاه

ت ٥٠٨٥٦ مصر